

التوسع الثقافي ودوره في تحديد مفهوم الشعر / دراسة في محاولة قدامة والقرطاجني

Cultural expansion and its role in defining the concept of poetry / A study of the attempt of Qudama and Al-Qartajani

د. امحمد داود

محمد بوشقور*

جامعة ابن خلدون - تيارت -

جامعة ابن خلدون - تيارت -

مخبر الخطاب الحجاجي، أصوله ومرجعياته وآفاقه في
daoudmhamed74@gmail.com

مخبر الخطاب الحجاجي، أصوله ومرجعياته وآفاقه في
pensalehmed@yahoo.com

تاريخ القبول: ٢٧/١١/٢٠٢٥

النشر ١١/١٢/٢٠٢٥

تاريخ الاستلام: ٠٩/١١/٢٠٢٥

ملخص: دراسة في ما يمكن أن يحدثه الانتقال والتحول الثقافي من مغايرة في التفكير وأساليب تناول الظواهر الأدبية بالدراسة والتحليل، قصد معرفة أسباب تشكلاتها، وضبط حركيتها داخل الكيان النفسي للأفراد، ثم ضمن الحيز الاجتماعي على رقعة جغرافية محددة، مرتبطة بزمان ما، هنا تعكف الدراسة على تجربة البحث في عناصر الظاهرة النقدية العربية، ضمن أولى خطواتها إذا ما نُظر إلى عمرها حتى عصرنا. وقف الناقد العربي منذ القدم يفكر ككل باحث في مواجهة الإشكالات كظواهر حادثة، ومحاولة اكتشاف أسرار حدوثها، وفق معطيات متاحة تتعدد وفق نمط تفكيري تتحكم فيه مختلف الأساليب الحضارية باعتبارها قوانين ومعارف تشكل سمة الظاهرة النقدية للمرحلة الزمكانية تلك، وفي هذا البحث نسلط الضوء على قضية مفهوم الشعر؛ التي نوقشت مرارا، لكننا نرؤى من خلالها إلى مقارنة بين وجهتين نقديتين متباينتين زمنيا، يحمل لواءها قدامة بن جعفر والقرطاجني؛ لنرى مدى أثر البعد الثقافي والمعرفي في إحداث المغايرة في التفكير، ومن ثم التباين في تحديد مفاهيم مختلف القضايا النقدية.

الكلمات المفتاحية: مفهوم الشعر؛ قرطاجني؛ قدامة؛ تعجيب؛ وزن؛ قافية

Abstract : A study of what cultural transition and transformation can cause in terms of a difference in thinking and methods of studying and analyzing literary phenomena, with the aim of knowing the reasons for their formations, and controlling their movement within the psychological entity of individuals, and then within the social space on a specific geographical area, linked to a certain

time. Here, the study is devoted to the experiment of researching the elements of the Arab critical phenomenon, within its first steps if we look at its age up to our era.

Since ancient times, the Arab critic has been thinking, like every researcher, about confronting problems as emerging phenomena, and trying to discover the secrets of their occurrence, according to available data that are multiple and in accordance with a thinking pattern controlled by various civilizational methods as laws and knowledge that constitute the characteristic of the critical phenomenon of that spatio-temporal stage. In this research, we shed light on the issue of the concept of poetry, which has been discussed repeatedly, but through it we aspire to a comparison between two critical points of view that differ in time, carried by Qudamah ibn Ja'far and al-Qartajani; to see the extent of the impact of the cultural and cognitive dimension in creating difference in thinking, and then the variation in defining the concepts of various critical issues.

KeyWords: concept of poetry; Carthaginian; Qudama; Exclamation; Meter; Rhyme.

*محمد بوشقور

المقدمة :

معلوم أن الظاهرة الشعرية أسلوب في رافق الإنسان منذ بدايات عميقة، ربما تتعلق بوجوده على الأرض وحيدا موحشا، فلجأ إليها مستأنسا بها متغنيا بخواطر نفسية تفرضها الوحدة بداية، ثم ما فتئت تتطور وتشكل وفق ما يكتشفه الإنسان جراء تجاربه في الحياة.

واستمر الإنسان في كل مرة يتساءل عن سر تلك الظاهرة الشعرية، محاولا معرفة أسباب حدوثها وأسرارها، حتى يملك ميكانيزمات التحكم الشعري، ومن ثم تحديد مفهوم الشعر ووضع قوانين تحدد هذا المفهوم، حيث يمكن بإتباع تلك القواعد إنتاج القصائد الشعرية في مختلف الأغراض والموضوعات، أو تفسير المدونات الشعرية وتقييمها، وقد نال الإغريق قصب السبق في ذلك، حيث عمل المفكرون لديهم على محاولة معرفة الظاهرة الشعرية وتحليلها، انطلاقا مما توفر عندهم من مادة شعرية يونانية كالتى كان ينسجها "هوميروس" وغيره.

وكذلك الحال لدى العرب فيما وصلنا عنهم من آثار نقدية تبعا لما تركوا من قصائد ومدونات شعرية، فقد استمر التساؤل حول ظاهرة الشعر وكيفيات حدوثها، وعمل النقاد الأوائل منهم على محاولة تشريح الظاهرة بأوجه متنوعة

من الدراسات والتفسير بعد التتبع وإمعان النظر فيما وجد بين أيديهم من مدونات شعرية تركها شعراء العصر الجاهلي، أو أنتجها شعراء كل عصر بعدهم، فكانت دراسات كثيرة، مقارنة ببساطة وسائل وظروف الحياة المحيطة بها، فجهود أمثال ابن سلام الجهمي في "الطبقات" أو الجاحظ في "البيان" أو ابن طباطبا في "العيار" أو ابن قتيبة في "الشعر والشعراء" أو ابن المعتز صاحب "البديع" أو الجرجاني في "الدلائل والإعجاز" الذي لازال يثير العديد من التساؤل حول مختلف القضايا اللغوية والشعرية والنقدية المهمة، إلى هؤلاء وغيرهم تضاف جهود قدامة بن جعفر في منتصف القرن الرابع للهجرة، بما ضمن في كتابه "نقد الشعر" من دراسة حول الظاهرة الشعرية العربية وتحليلها حتى يفك سرها ويقف على أسباب حدوثها.

ضف إلى ذلك جهود البلاغي البارز في الحياة النقدية والبلاغية العربية قديما، حازم القرطاجي من رجالات القرن السابع المحجري، بمؤلفه الرفيع "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" كان سفرا فريدا بين أقرانه الذين عاصروهم، وإلى اليوم يحافظ على ذلك التفرد، بما يحويه من نظرات ثاقبة في تتبع الظاهرة محل الدراسة، فقد جمع لصاحبه الكثير مما غاب عن من سبقه من نقاد العصور قبله، من علوم وبلاغة ومنطق، وتطورات في الأغراض الشعرية وقوالب في أساليب التعبير والنظم الشعري؛ كالبديع والمنطق والفلسفة .

في بحثنا هذا نحاول الإجابة عن التساؤل حول: هل التوسع الثقافي سبب تباين وجهات النظر بين قدامة

وحازم في الإحاطة بمفهوم الشعر؟

ولحل هذا الإشكال أعدنا هته الدراسة الموسومة ب: (التوسع الثقافي ودوره في تحديد مفهوم الشعر / دراسة في محاولة قدامة وحازم القرطاجي)، نبدوها بمحاولة قدامة في تفسير ظاهرة الشعر بناء على ما وجد في كتابه "نقد الشعر"، ثم نورد مفهوم الشعر عند أرسطو من خلال كتاباته في تلك القضية النقدية، حتى نتضح النقولات والأثر الأرسطي في آراء علمي الدراسة، ثم نتبع المفهوم لدى حازم من خلال ما يحويه كتابه "منهاج البلغاء" من آراء وتحليل للظاهرة الشعرية العربية وغير العربية.

— محاولة قدامة بن جعفر في تحديد مفهوم الظاهرة الشعرية:

لا غلو —ربما— إن اعتبرنا أن قدامة أول من حاول وضع تحديد للشعر بصورة منطقية تحاول على الأقل أن تنتهج الانضباط والترتيب بطريقة لم يعهدها البحث في القضايا النقدية والأدبية التي عاجلها النقد العربي القديم، لم يجرؤ أحد ممن سبقه من النقاد على فعل هذا التحليل بالشكل الذي عرف فيما بعد ب(المنطق الأرسطي) في حصر مفهوم

الشعر، ومما هو شائع عنه مقولته: «الشعر كلام موزن مقفى يدل على معنى» إذ اشتهر هذا القول عند نقاد العرب في عصره أو من جاء بعده؛ إذ تأثروا بتلك المقولة فظهرت في تناولهم لمفهوم الشعر، واجتهاداتهم فيها. وقد تباينت الآراء حول مدى تأثير قدامة بالمنطق اليوناني، إذ اختلفت بين من يرى أنه واضح في كتاباته واجتهاداته النقدية، وبين من استبعده ونفى ذلك.

ومن مثل النظرة الأولى: إحسان عباس الذي يرى أنه "منذ البداية يبدو قدامة متأثراً بالمنطق الأرسطي، متجاوزاً المفهوم اليوناني للشعر"⁽¹⁾، وتعريف قدامة الذي تأثر به الكثير من النقاد بعده، عده بعض الباحثين في النقد العربي قاصراً لخلوه من التطرق إلى جانب الخيال واكتفائه بالجانب الشكلي للشعر فقط، مفارقاً مفهوم أرسطو حيث يجعل المحاكاة جوهر الشعر، فهي لب الشعر وروحه، وما للوزن حاجة إلا تحسين الشعر وتحقيق لذة في سماعه، وتبعه فلاسفة العرب في عد الخيال أو التخيل أساس الشعر حسبما فهموا من ترجمات كتابات أرسطو، ومما وصلت به أبحاثهم حول الشعر، وتحديد قدامة قصوره في أنه لا يضبط المفهوم ضبطاً يحيط به من كل ناحية خاصة الخيال، إذ لا فرق بين الشعر والعلم عندما نقرأ تعريفه للشعر، فقد تشبه النظريات العلمية التي نظمت في قالب شعري، وتحمل معاني دالة على ذاتها، لكن لا تدخل في باب الشعر المقصود بتعريف قدامة"⁽²⁾، لغياب عنصر التخيل والمحاكاة فيه، وجعله في أجزاء أربع؛ اللفظ، المعنى، القافية والوزن، "وعليه يرى بدوي طبانة، أن قياس قدامة المنطقي في حدّه للشعر بأنه يدلّ على معنى غير مانع من دخول كلام موزون ومقفى، ولكنه لا يعدّ شعراً في نظر المحققين"⁽³⁾ كنظم نظريات العلم لحفظها، لكن لماذا غاب الكلام عن المحاكاة وجانب التخيل عند قدامة حول ظاهرة الشعر؟ كان فيه النقاد فريقين إذ عده بعض الدارسين لعدم فهم قدامة نظرية المحاكاة عند أرسطو، وظنّ ثان يرى أن قدامة أخفى تأثيره بفكر أرسطو، بسبب نظرة الناس آنذاك حول الفلسفة اليونانية وكافة العلوم الأجنبية التي كانت دخيلة وغير مفهومة ومستغربة.

أما من مثل النظرة الثانية المدافعة عن عدم تأثر قدامة بالمنطق إلا يسيراً، فعباس ارحيلة؛ يرى أنّ نموذج التعريف الذي جاء به قدامة لم يكن بدعاً من عنده، بل استنبطه من بحوث من سبقه من نقاد سابقين كابن سلام، والمبرد، وابن طباطبا، في معالجة ما يشبه مثل هته القضايا داخل مؤلفاتهم النقدية، كقضية اللفظ والمعنى والوزن والقافية وقدامة صاغها بعبارة مغايرة في الشكل وهي متضمنة لما وجد عندهم، ظلت مقولته الشهيرة تتردد على لسان كل باحث بعده، أو ضمها الكثير منهم في تأليفهم حول النقد الشعري"⁽⁴⁾ ربما يحاول الباحث (ارحيلة) دفع قضية الأثر عن قدامة بكل حجة، ويرى أن هذا النوع من التحليل الفلسفي والمنطقي بعيد عنه، لم يطلع على ما وجد بعده في ساحة النقد الأدبي العربي من العلوم اليونانية.

- محاولة أرسطو في تحديد مفهوم الشعر:

شغل تحديد مفهوم الشعر في كتاب "الشعر" حيزاً مهماً، وإن لم يظهر مباشرة، ولكن من خلال تحليلات مؤلفه الكثيرة فيه، حتى يحاصر التعريف بمختلف العناصر المشكلة للعملية الشعرية، وأرسطو في كتابه (فن الشعر) "قرن الشعر بفن الموسيقى وجعلها في طريقة المحاكاة وأدائها وموضوعها يكوّنان نوعاً متميزاً من الفنون الأخرى، فنون البصر والصورة"^(٥) فكشف أرسطو العلاقة الوثيقة بين الشعر والمحاكاة، فالشعر أحد الفنون الجمالية القائمة على المحاكاة كباقي الفنون، لا فرق بينهم إلا في طريقة المحاكاة أو موضوعها أو وسيلتها، "والشعر الحق عند أرسطو يتجلى في المأساة والملحمة والملهاة، والمحاكاة لا الأوزان هي التي تفرق ما بين الشعر والثر"^(٦)، يعني أن أرسطو يعتبر المحاكاة جوهر الشعر، "ولما كان الشاعر محاكياً شأنه شأن الرسام وكل فنان يصنع الصور، فينبغي عليه بالضرورة أن يتخذ دائماً إحدى طرق المحاكاة الثلاث: فهو يصور الأشياء إما كما كانت أو كما هي في الواقع، أو كما يصفها الناس وتبدو عليه، أو كما يجب أن تكون. وهو إنما يصور بالقول، ويشمل: الكلمة الغريبة، والجاز، وكثيراً من التبديلات اللغوية، التي أحزناها للشعراء"^(٧) فالمحاكاة في الشعر في نظر أرسطو تكون بواسطة الإيقاع والانسجام واللغة وهي أيضاً وسائل للمحاكاة في باقي الفنون، بينما تتباين حسب نمط الشعر، ولكن أرسطو فرق بين التراجيديا والكوميديا، وباقي الأساليب الشعرية الأخرى التي يتميز بها الشعر اليوناني، إذ تتباين من حيث الوسائل المستعملة في المحاكاة وفي جهة الاستعمال، إذ قد تستعمل بعضها وسائل متعددة وتستعمل أخرى الوزن الإيقاع أو وسائل أخرى، وليس للوزن أهمية كبيرة في الشعر عنده، وليس شرطاً في الشعرية، ويفرق أرسطو بين الشعر التعليمي والشعر الإبداعي الأدبي، فيرى أنه هناك فرق بين من ينظم نظرية في الطب أو الطبيعة مع أن كليهما يسمى شاعراً؛ إلا أنه لا وجه للمقارنة بين هوميروس وأنبأذوقليس إلا في الوزن، فأرسطو يرى أن أحدهما يعتبر شاعراً، والآخر طبيعياً، وهي مفارقة جيدة أسسها أرسطو، توضح ما المقصود بالشعر والشاعر، "فالشعر ليس الوزن من جوهره، ولكنه بالنسبة للمحاكاة ثانوي رغم ضرورته"^(٨)، ووفق هذا على الشاعر أن يكون مبدعاً لحكايات وخرافات لا ناظم أشعار وإن كانت محققة شرط الوزن والشكل ظاهراً، لأنه شاعر بما يقتضيه الشعر من محاكاة، وهو إنما يحاكي أفعالا^(٩) إما موجودة فعلاً، أو متصورة في ذهن الشاعر يصنعها بقوة خياله بما يملكه من مقومات فطرية أو مما تعلمه مما يحيط به في بيئته.

عملنا على أن نعرف كيف حاول أرسطو تفسير الظاهرة الشعرية بوصفها عمل أدبي إنساني تتداخل فيه عوامل نفسية وعقلية تحيط بها ظروف حياتية متنوعة بين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، تتدخل في توجيهها، وتشكل تطلعاتها وأشكالها التعبيرية، وهي عند أرسطو مستنبطة من الأعمال الأدبية اليونانية، فهي تخص الشعر اليوناني، وإن كان التنظير لها قد يتداخل مع باقي النظريات الأدبية في العالم، لذلك حاول العرب أو النقاد منهم الاطلاع على تلك الدراسات ومحاولة تطبيق نتائجها مع ما وجد عندهم من أعمال أدبية، فأثرت نظريات أرسطو في الدراسات العربية القديمة، بشكل أو بآخر.

- محاولة حازم ضبط ماهية الشعر:

لم تتوقف حركة النقد العربي الذي كانت بداياته قبل زمن حازم بعصور طويلة، كانت كل مرحلة تترك أثرها فيه- النقد الأدبي العربي- من خلال عديد التغييرات التي تتباين فيما بينها، في نمط الرؤية النقدية التي تستمد قوتها انطلاقاً من طرق التفكير تبعاً للمستوى الثقافي والحضاري الذي يسود كل عصر، فينتج جراء تلك الحركة الدائمة أو الآتية أحياناً تراكمات نقدية تشكل مادة خام للمتخلفين من النقاد على غرار من تقدمهم، وحازم القرطاجني وباعتباره من نقاد القرن السابع الهجري، فقد اجتمع عنده الشيء الهائل من الدراسات والجهود البحثية في مختلف القضايا النقدية التي لم يوفق إليها من سبقه من النقاد، مع الأخذ في الاعتبار نوعية تلك المادة الخام؛ فهي لم تكن عربية فقط أو محلية مثلما ألفناها قبل القرن الرابع الهجري؛ بل هي خليطٌ تداخلت في تكوينه شعب فلسفية ومنطقية وثقافية متنوعة، بين الفارسية أو اليونانية، وغيرها، حيث جمعت عند القرطاجني، تحمل معطيات مختلفة عما وُجد لدى قدامة، فعصر قدامة لم يعرف مؤلفات في البلاغة كمفتاح العلوم للسكاكي، ولا دلائل الإعجاز للجرجاني، ولا أساس البلاغة للزمخشري، ولم يعرف صنوف التأليف في مجال اللغة وعلومها؛ كالنحو والصرف وغيرها من البحوث التي تحلفت عصورها خاصة ما تعلق منها بالنقد ودراساته التي خاطت الفلسفة وقراءاتها الجديدة التي لم يعهدها عصر قدامة، وصادفها عصر القرطاجني لتأخره، فكانت في صالحه، وطبعاً شكلت عاملاً مهماً للإدراك التباين الفعلي بين مستوى الفهم والتحليل بين علمي الدراسة هته.

إن مهمة حازم كانت كبيرة جداً، فهو أمام حملٍ معرفي كبير، له من الثقل بما كان، لكن ربما هو في صالحه حيث وفر له الكثير من الأشياء التي لم يشهدها سابقوه، وعمله هو أن يقرأ التراث العربي ثم اليوناني، من خلال الكتابات الضخمة والعديدة التي خلفهاها-التراثين- ثم يحاول أن يخرج لنا مفهوماً للشعر يكون قانوناً عاماً يحتكم على ضوءه الشعراء من بعده، وبقي به النقد نصوص الأدب ويحكمون بينها تبعاً له.

وفي مفهوم الشعر عند حازم يظهر التزاوج الثقافي ظاهراً في محاولته التوليف بين الموروثين النقديين-اليوناني والعربي- في محاولة ضبط لتعريف جامع مانع للشعر؛ عامة الشعر، وإن كان يميل إلى تخصيص التحديد بالشعر العربي، فيقول حازم: «الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحجب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكرهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخيل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن تأليف الكلام، أو قوة صدقه أو شهرته، أو بمجموع ذلك، وكلُّ ذلك يتأكد بما يقتزن به من إغراب، فإنَّ الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قويَّ انفعالها وتأثيرها»⁽¹⁰⁾، وفي هذا يرى زروقي عبد القادر؛ أن حازماً يجمع في هذا التعريف بين ماهية الشعر وغائته، فأما الأولى فقد تميزت في الوزن، والقافية، والمحاكاة، والتركيب أو العبارة، أما الغائية والفاعلية فتمثلتا في الطلب، والهرب، والانفعال، والتأثر والاستغراب، والتعجب⁽¹¹⁾، وهذا تحديد

دقيق لمفهوم الشعر، ويحاول التفريق بين الشعر الرديء والجيد، فالجيد ما حسنت تأليفه ومحاكاته، وخفي كذبه وضمّ غرابة في معانيه، على اعتبار الشاعر حاذقاً إذا كان ذكياً في تصوير الكذب صدقاً في ذهن السامع أو المتلقي، دون ترك أي أثر يدل على الكذب الظاهر فيه، والرديء من الشعر فهو ما خلا من تلك الصفات جميعاً، وقُبح استعمال وطرق المحاكاة فيه، وكذبه مفضوحاً، لا تحالطه غرابة مؤثرة تشد انتباه السامع، فلا يسمى شعراً إذن ولو كان موزوناً مقفىً، حيث لا يحقق مقاصد الشعرية، تكون النفس باردة عند مقتضاه بلا شعور ولا أثر؛ لحلول قبح الهيئة بين الألفاظ وما تحمله من معاني تحرك الشعور وتحدث التأثير، المحاكاة القبيحة تظلل كثيراً من صفات الحسن للمحاكي، يسبب برود التخيل، وغياب التأثير، واستعمال الكذب الظاهر يفسد الشعر ويسبب نفور نفس المتلقي وعدم التأثير والطرب له⁽¹²⁾ فحازم يرى أن الشعر الجيد يثير في النفس الإعجاب وهذا الأخير يؤدي إلى الانفعال ويقويه، فتستحسنه النفس وتطرب⁽¹³⁾، وما يشبه كلام حازم أنفاً نجده عند الفارابي محاولاً تحديد مفهوم الظاهرة الشعرية حيث يصير الشعر أكمل وأفضل في استعمال الألفاظ متداولة الاستعمال أو غريبة، وبأن تكون المعاني المتولدة جراء تلك الألفاظ صوراً تحاكي الصور سياق القول، مع إيقاع، ووزن وأن تكون مقسومة الأجزاء⁽¹⁴⁾ لذا فحازم بهذا النقل عن من سبقه من النقاد هو قارئ جيداً للتراث النقدي الذي ورثه عصره عن سابق العصور.

وإذا أمعنا النظر في تجربة حازم في تحديد مفهوم الشعر نجد أيضاً يعتبر التخيل والمحاكاة جوهر الشعر، والمحاكاة قد تقوم بنفسها وقد تستند إلى عوامل أخرى مساعدة وهو يلتفتنا بعد ذلك إلى اقتران المحاكاة بعملية التعجيب، ومالها من دور في التأثير على النفس وتقوية الانفعال، وابن سينا له أيضاً وقوفاً على فكرة التعجيب، ورأى أن الشعراء العرب يفعلون هذا مراراً، وتطرق حازم لهذه الفكرة حجة أخرى تبين أن قضية المحاكاة شاعت في الوسط العربي، واتجهت إلى أن تتكيف وفق ما يقتضيه قانون الشعر العربي⁽¹⁵⁾ وابن سينا نجده "يعرف الشعر بجوهره، ناسباً كلامه إلى «القدماء» وكأنه يتخفف من تبعية ما يقول أو أنه يقويه بهذه النسبة⁽¹⁶⁾ حيث يقول: "فقوام الشعر وجوهره عند القدماء هو أن يكون قولاً مؤلفاً مما يحاكي الأمر، وأن يكون مقسوماً بأجزاء ينطق بها في أزمنة متساوية، ثم سائر ما فيه فليس بضروري في قوام جوهره، وإنما هي أشياء يصير بها الشعر أفضل"⁽¹⁷⁾ والفارابي أيضاً يهون من قيمة الوزن والقافية فهي مجرد أشياء تحسينية لصورة الشعر، لكن قوام الشعر هو المحاكاة، وهذا دليل أثر أرسطو، يظهر في نظرة حقيقة الشعر عند المعلم الثاني-الفارابي- رغم ما بينهما من تباعد زمني، وإقرار لمفهوم العلاقة بين المحاكاة والفنون عامة والشعر بشكل خاص.

إن حازم في تعريفه للشعر يتقنى قدامة في كلمته المشهورة، الشعر قول موزون مقفى، ونظراً لتأخر حاوَم عن قدامة فقد خدمه هذا التأخر، لأنه وفر له ما لم يوجد لدى قدامة وابن طباطبا اللذان سبقاه في المحاولة، مثل اطلاعه

على بحوث أهل الفلسفة والنقد الذين حاولوا القيام بقراءة مغايرة لما كان متداولاً بين النقاد منذ قبل شيوع الدراسات اليونانية في قضايا الشعر، وما أنجزه النقاد النظريين بعد قدامة، ويؤكد جابر عصفور أن حازماً كان يعرف قدامة جيداً بسبب ذكره في "المنهاج"⁽¹⁸⁾ ولم يكن يخفي ما يأخذه عنه من أفكار فهي واضحة من خلال تحليله لعدد القضايا النقدية في "منهاجه".

لاحظ مصطفى الجوزو في تعريف حازم للشعر، أنه يكاد يقارب حدَّ قدامة للشعر، وإن كان يتطرق إلى مفهوم التخيل والمحاكاة معاً مع عنصر الإغراب أما في تحديده للشعر حيث قارب تعريف ابن سينا حرفياً وهو⁽¹⁹⁾ حينما يقول: «الشعر كلام مخيل موزون مختص في لسان العرب بزيادة التقفية على ذلك، والثامه من مقدمات مخيلة، صادقة كانت أو كاذبة، ولا يشترط فيها- بما هي شعر- غير التخيل»⁽²⁰⁾ ويرى جابر عصفور أن: "حازماً حاول أن يخط لنفسه منهجاً في التأليف غير منهج قدامة، ولكنه يتابعه في محاولة تأصيل مفهوم للشعر غير مفارق لفكرة (علم الشعر) التي سعى إليها سلفه في القرن الرابع"⁽²¹⁾، ويرى الجوزو أن حازم حاول البحث في الشعر العام لكنه انحاز وبقي يعمل على الشعر العربي، وذلك لأنه ينظر إلى القافية كعنصر أساسي أولي من عناصر الشعر على غرار قدامة ومن تابعه⁽²²⁾، وطبعاً فهو يعمل على مدونة أدبية عربية اللسان والصياغة والقالب، فهمه الآن إخراج قواعد ونظرية شعرية تحدد مفهوم الشعر أولاً، ثم تضع آليات وقوانين منطقية تعصم الشعراء من الخطأ في إصابة الهدف من الصنعة الشعرية، وتحقيق مستوى من الرقي في التصوير الشعري يوازي أو يواكب ما وصل إليه السابقون ممن هلهلوا الشعر أو وصلوا إلى مستوى رفيع في الإبداع الشعري.

أراد حازم دراسة النقد اليوناني، باحثاً قوانين يدرس بها الشعر، سواء العربي أو العالمي، فكانت مهمة مخوفة بالمخاطر والمفاجآت، وكان حازم في دراسته لمفهوم الشعر، يتكل على ما وضع أرسطو في مفهوم الشعرية، وبذل في منهاجه مجهوداً لأجل مراجعة شاملة لهذه الشعرية، حتى تتواءم مع طبيعة الشعر العربي وحازم كان واعياً باختلاف الشعرين العربي واليوناني⁽²³⁾، فالأخيرة شعرها غنائي وجداني، تلعب فيه العاطفة دوراً فعالاً في الإبداع، بينما الشعر اليوناني فهو شعر ملحمي تمثيلي، أعد للتمثيل على مسارح وفضاءات.

- قضية الخيال والتخيل عند حازم:

سبق ابن سينا الفلاسفة العرب من خلال توظيف التخيل كمبحث نفسي في فهم إشكالية الشعرية، على غرار الفارابي الذي لم يتناول الأمر بالبيان في قوانين صناعة الشعراء، وابن سينا يرى أنَّ الشعر هو كلام مخيل⁽²⁴⁾، وقد اعتمد القرطاجني على مفاهيم ابن سينا للشعر أكثر مما أخذه عن الفلاسفة الذين نقل عنهم في "منهاجه"، حيث نقل عن ابن سينا في مواضع كثيرة، ومرتين عن الفارابي، ولم يظهر أي أثر لاسم ابن رشد في الكتاب⁽²⁵⁾، إلا يسيراً.

كما أنه ثبت أن للفارابي رأي في مصطلح التخيل، فلو قلنا أن أول من نقرأ له هذا المصطلح النقدي الفارابي ولاغلو هنا حسب ما يذكره بعض الدارسون، وهو لا يعرف **التخيل** بل يشير إلى أثره النفسي⁽²⁶⁾ حيث يقول: «عرض لنا عند استماعنا الأقاويل الشعرية، عن التخيل الذي يقع عنها في أنفسنا، شبيه بما يعرض عند نظرنا إلى الشيء الذي يشبه ما نعاف: فإننا من ساعتنا يحل لنا في ذلك الشيء أنه مما يعاف، فتتفر أنفسنا منه، فنتجنبه، وإن تيقنا أنه ليس في الحقيقة كما حل لنا، فننفع فيما تخيله لنا الأقاويل الشعرية وإن علمنا أن الأمر ليس كذلك»⁽²⁷⁾، من هذا ظهر أن التخيل قضية تنبه لها بعض النقاد الذين سبقوا القرطاجي في العصر، بل أهم من ذلك أن من بنى حازم نظريته عليهم حول الشعر ك: الفارابي أو ابن سينا، كان لهم محاولات مفيدة في مناقشة الكثير من القضايا النقدية قبله، وهذا الأخير لم يُخفِ مرارا جهودهم ويتجاوزها، بقدر ما بينهم من بعد زمني وحاول شرحها، ثم كان عمله أن أكمل النقص، أو بين الخطأ وصوبه، أو جاء بشيء لم يعرف قبله؛ وهذه براعة وعمل جيد يحسب لحازم ويزيد ثقته وأمانته العلمية، ويظهر مهارته في التحليل والفهم والمناقشة.

يحاول حازم تحديد معنى التخيل في الشعر عن فيقول: «والتخيل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها و تصورهما، أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهة من الانبساط أو الانقباض»⁽²⁸⁾ وفي مفهوم حازم للشعر جاء، أن التخيل خاصية شعرية، لا الخطابة، فهو-الشعر- لا يناقض اليقين، بينما الخطابة توصف بالإقناع، والشعر بعيد كل البعد من التصديق ومناقض للأقاويل الصادقة فيقول: «فلذلك وجب أن يكون في الكلام المخيل صدق وغير صدق، ولا يكون في الكلام المقنع ما لم يعدل به إلى التصديق إلا الظن الغالب خاصة، والظن مناف لليقين»⁽²⁹⁾ وهنا أقر مصلوح أن "التخيل قوام الشعر وهو وسيلة لتبيين ماهو شعر وغيره من الفنون القولية"⁽³⁰⁾، والتخيل عند حازم؛ أن تتكون صور في ذهن السامع يحدثه كلام ومعاني الشاعر، تخلق صوراً أخرى عنده يتأثر بها، وهنا يراه مصلوح على أنه يظهر فهما جيدا لنظرية التخيل الشعري لدى ابن سينا، حيث إن الشعر الجيد المخيل عند ابن سينا هو قيام الشاعر باستخدام المحاكاة فيركب صوراً مقابلة لصور المدركات الحسية التي يدركها الخيال أو القوة المتصورة فتصل إلى القوة المتخيّلة فتتفاعل لها بالبسط أو القبض⁽³¹⁾. وللتخيل عند حازم علاقة متينة بالحس والإدراك فيرى أن الأشياء منها ما يدرك بالحس، ومنها ما لا يدرك به، والمدرك بالحس هو الذي تتخيله نفس الإنسان، لأن التخيل ناتج عن الحس، وكل ما يدرك بغير الحس فإنما تتخيله بما يدل عليه من الصور التي يمكن أن تتخيله أو ما يحيل إليه مقارنة حقيقته، حيث تكون تلك الأحوال مما يحس ويشاهد فيكون تخيل الشيء من جهة ما يستبينه الحس من آثاره والأحوال اللازمة له حال وجوده والهيئات المشاهدة لما التبس به ووجد عنده⁽³²⁾ فصار إذا إدراك الأشياء بالحس يشكل صورها في النفس مثل صورة الشيء

المدرّك تماماً، وإدراكها بغير الحس فينتج صورها بدلالة صور الدلالة كاللفظ والإشارة أو أي شكل من أشكال التعبير، ولذلك صحّ عنده محاكاة غير المحسوس بالمحسوس وقبح عكس ذلك⁽³³⁾، تبين إذن أن حازم يعي جيداً فهم ابن سينا للتخييل كما يعيها جيداً مع الفارابي، ثم يحاول أن يضيف أو يوضح مقولاتهما فيه، ولا يعيد ما قيل فقط.

إن المتمعن في تفسير حازم للتخييل، وبالذات قضية تبعية التخييل للحس فهي رؤية تستمد روحها فكر أرسطو؛ حيث التخييل جسر بين الفكر والحس، غير منفصل عن الحس كما أن الفكر لا يمارس وظيفة مباشرة في المحسوسات لأنها ليست موضوع الفكر الذي هو خيالات المحسوسات⁽³⁴⁾، وإن كان حازم يقترب في تأثره من ابن سينا، لاختلاف نظرة ابن سينا من جهة فنية وعند أرسطو من جهة نفسية، وكذلك هي عند حازم⁽³⁵⁾، فهو متأثر بما قبله بتركه العلماء، لكن يبعد عن التقليد المعيب.

خاتمة: من خلال هته الدراسة وجدنا أن النقد العربي كان في غالبه وعن طريق جل من حمل لواء دراسة النصوص الأدبية بالنقد، كان في كل مرة يحاول أن يواكب روح العصر، وما تملّيه الثقافة السائدة فيه من معطيات وأفكار، مع مراعاة أصول الشعرية أو الأدب العربيين .

كذلك من خلال المقارنة التي عملت عليها الدراسة، وجدنا أن قدامة بن جعفر كانت محاولته في تحديد مفهوم الشعر، ووضع قواعد تكون بمثابة القوانين التي تحوط النص الشعري على أن يقع الشاعر من خلاله في الخطأ في تأدية المعنى المراد، أو القصور دون بلوغ درجة الرفعة الشاعرية لديه.

فبذل قدامة جهداً مضمناً في سبيل تحقيق ذلك، باستخدام ما توفر عنده من مقومات لغوية وبلاغية وعرفية أيضاً؛ لأنها تتدخل في توجيه العملية الشعرية، ورأينا أنه كان أول من قال " الشعر قول موزون مقفى " حتى تداولت المقولة جل النقد من بعده، مما دل على قدر من التفكير ومستوى من التحليل وبعداً في النظر العلمي للأدب ونقده، تأتي حتماً بعد مراس ودربة بعيدة التكوين والإعداد.

أما مع القرطاجني، فوقفنا على انزياح ظاهر في تناول القضايا النقدية، وقضية مفهوم الشعر خصوصاً، ووجدنا أن مرجع ذلك عدة عوامل منها:

- التباين بين العصور في الزمن والمكان، حيث يصل إلى حوالي ثلاث قرون زمنية.
- ما وجد عند حازم نتيجة التأخر في العصر من علوم ودراسات في الفلسفة والمنطق والبلاغة واللغة والأدب شعراً ونثراً، كانت عوامل خدمت بحث حازم، وغابت عن بيئة قدامة بفعل تأخرها عن زمنه، فلذلك أظهرت فرقاً في معطيات البحث لدى كل منهما، ومن ثم فرقاً في نتائجه في كتابيهما (نقد الشعر والمنهاج).

- تطرق حازم إلى عنصر التخيل والمحاكاة، الذين غابا كلياً في تعريف قدامة حتى خلا منهما كتابه "نقد الشعر"، وذلك لأسباب ذكرها بعض الدارسين منها:

- النظرة السائدة حول أولى بداية الانفتاح الحضاري في زمن قدامة، حيث جوبحت بعض الآراء الفلسفية والمنطقية بالرفض والنفور من جانب الكثير من النقاد وأهل اللغة والمتممين بالأدب، بسبب التعصب العقدي مظنة مخالفة الشرع الإسلامي، فلجأ قدامة- كما يرى بعض الباحثين- إلى إخفاء تأثره بالمنطق والفلسفة اليونانية، ولم يتوسع في استعمالهما في تعريف الشعر.
- ما وجد عند قدامة من دراسات معرفية في شتى العلوم، لا يعد شيئاً إذا ما قورن بما هو عند حازم؛ وذلك بسبب التأخر الزمني واختلاف معطيات التطور والحضارة؛ وهو عامل مهم وصلت إليه دراستنا في التحقق من أنّ التوسع الثقافي الذي ينشأ نتيجة الحركية الحضارية للأمم هو عامل مهم لتغيير كثير من المفاهيم، والمفاهيم العلمية خاصة، ومنها تتباين الآراء والمواقف والتفسير والمفاهيم، التي من بينها مفهوم الشعر عند العرب؛ وهنا بين قدامة بن جعفر وحازم القرطاجي من خلال كتابيهما.

هوامش وإحالات البحث:

١. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط ٤، ٢٠٠٦، ص ١٧٩.
٢. ينظر، عثمان موائي، في نظرية الأدب، من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم، ج ١، دار المعرفة الجامعية القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٠، ص ٢٢.
٣. ينظر، طبانة بدوي، قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٩٦٩، ص ١٧٤.
٤. ينظر، ارجيلة عباس، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط ١، ١٩٩٩. ص ٤٠٦.
٥. القلماوي سهير، فن الأدب (المحاكاة)، مطبعة الحلبي القاهرة، ١٩٥٣، ص ٩٢.
٦. هلال محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار العودة بيروت لبنان، ط ١، ١٩٨٢، ص ٥٠.
٧. أرسطو طاليس، فن الشعر. تحقيق. د. عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة بيروت لبنان، دط، ٢٠٠١، صص، ٧١، ٧٢.
٨. مصلوح سعد، حازم القرطاجي ونظرية المحاكاة والتخيل في الشعر، مطبعة دار التأليف القاهرة، نشر عالم الكتب، ط ١، ١٩٨٠، ص ٧٧.
٩. أرسطو، فن الشعر، تر. بدوي، المصدر السابق، ص ٢٨.
١٠. القرطاجي أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط ٣، ١٩٨٦، ص ٧١.

١١. زروقي عبد القادر، المحاكاة والتخييل الحدود والتماهي، دار البازوري للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط١، ٢٠١٣، ص ١٤٤.
١٢. ينظر. حازم، المنهاج، المصدر السابق، ص ٧٢، وينظر: عثمان موافي، في نظرية الأدب، المرجع السابق، ص ٢٩.
١٣. ينظر، عثمان موافي، في نظرية الأدب المرجع السابق، ص ٢٩. وينظر. رجاء عيد (الدكتور)، التراث النقدي نصوص ودراسة، منشأة المعارف بالإسكندرية، دط، ١٩٩٠. ص ٢٩.
١٤. الفارابي أبو نصر، جوامع الشعر ضمن ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطو في الشعر، تر. محمد سالم، ص ١٧١ بتصرف.
١٥. أرسطاليس كتاب في الشعر، نقل أبي بشر متى بن يونس من السرياني إلى العربي، تحقق، د. شكري محمد عياد، دار الكاتب العربي القاهرة، ط١، ١٩٦٧، ص ٢٦٣. بتصرف
١٦. الجوزو مصطفى، نظريات الشعر عند العرب ج١، (الجاهلية والعصور الإسلامية)، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط١، ١٩٨١، ص ٢٠٤.
١٧. الفارابي، جوامع الشعر، المصدر السابق، صص ١٧٣، ١٧٢.
١٨. ينظر، عصفور جابر، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٥، ١٩٩٥، ص ١٥٥.
١٩. ينظر، الجوزو، نظريات الشعر، المرجع السابق، ص ٢٠٧.
٢٠. حازم، المنهاج، المصدر السابق، ص ٨٩.
٢١. عصفور جابر، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٥، ١٩٩٥، ص ١٥٥.
٢٢. ينظر، الجوزو، نظريات الشعر، المرجع السابق، ص ٢٠٨.
٢٣. ينظر، الغرافي مصطفى، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال ((منهاج البلغاء وسراج الأدباء)). مجلة عالم الفكر. العدد ١، المجلد ٤٠، يوليو/سبتمبر ٢٠١١. دولة الكويت، ص ٢٥٧.
٢٤. ينظر. ارحيلة، الأثر، المرجع السابق، ص ٦٩٧. و سعد مصلوح، حازم القرطاجني، المرجع السابق، ص ٩٩. وينظر، ابن سينا، ضمن فن الشعر، المصدر السابق، ص ١٦١.
٢٥. ينظر. مصلوح، حازم، المرجع السابق، ص ١٠٠.
٢٦. ينظر. الجوزو، نظريات، المرجع السابق، ص ١١٥.
٢٧. ينظر. الفارابي، جوامع الشعر، المصدر السابق، ص ١٧٤. وينظر. مصلوح، المرجع السابق، ص ١١٥.
٢٨. حازم، المنهاج، المصدر السابق، ص ٨٩.
٢٩. حازم، المنهاج، المصدر السابق، ص ٧٠.
٣٠. مصلوح، حازم والمحاكاة، المرجع السابق، ص ١٣٩.
٣١. ينظر، مصلوح المرجع نفسه، ص ١٨٠.
٣٢. ينظر، حازم، المنهاج، المصدر السابق، ص ٩٨.

٣٣. مصلوح، حازم والمحاكاة، المرجع السابق، ص ١٨٠. بتصرف

٣٤. المرجع نفسه، ص ١٨١.

٣٥. ينظر. المرجع نفسه، ص ١٨١.

قائمة المصادر والمراجع :

- ١، إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط٤، ٢٠٠٦.
٢. عثمان مواني، في نظرية الأدب، من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم، ج١، دار المعرفة الجامعية القاهرة، ط٣، ٢٠٠.
٣. طبانة بدوي، قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٩.
٤. ارحيلة عباس، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط١، ١٩٩٩.
٥. القلماوي سهير، فن الأدب (المحاكاة)، مطبعة الحلبي القاهرة، ١٩٥٣.
٦. هلال محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار العودة بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٢.
٧. أرسطو طاليس، فن الشعر. تحقيق. د. عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة بيروت لبنان، دط، ٢٠٠١.
٨. مصلوح سعد، حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر، مطبعة دار التأليف القاهرة، نشر عالم الكتب، ط١، ١٩٨٠.
٩. القرطاجني أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط٣، ١٩٨٦.
١٠. زروقي عبد القادر، المحاكاة والتخييل الحدود والتماهي، دار البازوري للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط١، ٢٠١٣.
١١. عثمان مواني، في نظرية الأدب المرجع السابق، ص ٢٩. وينظر. رجاء عيد (الدكتور)، التراث النقدي نصوص ودراسة، منشأة المعارف بالإسكندرية، دط، ١٩٩٠.
١٢. أرسطاليس كتاب في الشعر، نقل أبي بشر متى بن يونس من السرياني إلى العربي، تحق. د. شكري محمد عياد، دار الكاتب العربي القاهرة، ط١، ١٩٦٧.
١٣. الجوزو مصطفى، نظريات الشعر عند العرب ج١، (الجاهلية والعصور الإسلامية)، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط١، ١٩٨١.
١٤. عصفور جابر، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٥، ١٩٩٥.
١٥. الغرافي مصطفى، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال ((منهاج البلغاء وسراج الأدباء)). مجلة عالم الفكر. العدد ١، المجلد ٤٠، يوليو/سبتمبر ٢٠١١. دولة الكويت.